

الجارم الشاعر

الأستاذ عبد الجواد سليمان

وعدت القراء أن أعود إليهم على صفحات الرسالة الفراء
لنجدول جولة مع الجارم في شعره علنا نعطى صورة ولو تقريبية
لفنادر حظه من هذه الوهية الشعرية التي يكبها الله في قلوب
بعض عباده فيلهمون القول ، ويتفجرون بفيض من الحكمة
يصوغونه نغما شعريا يتفاوتون في بلاغته تفارنا يخضع لنصيب
كل شاعر من الهيؤ والملكة وسمة الإطلاع ، فإن الشعر عاطفة
وفكرة ، وإحساس وخيال ، أو هو كما عرفه بعض التربيين
بأنه (الحقيقة التي تصل إلى القلب رائحة بوساطة الماطفة) أو هو
(عرض البوائت النبيلة بوساطة الخيال) :

أو هو كما يقول الجارم نفسه : -

الشعر عاطفة تتشاد عاطفة وفكرة تتجلى بين أفكار
الشمر إن لأمس الأرواح ألهمها كما تقابل تيار بتيار
الشعر مصباح أنوار إذا التمسوا نور الحياة وزند الأمة الواري
الشعر أنشودة الفنان يرسلها إلى القلوب فيجيا بمد إفتار
والباحث في شعر الشاعر لن يصل إلى نتأج صحيحة أو يأتي
بمحه قريبا من كبد الحقيقة إلا إذا كان « ديوان الشاعر » أمامه
لا يفارقه لحظة ، يقبل صفحاته ، ويتنقل بين قصائده وينعم النظر
بين أبياته ، ويطل التأمل والوقوف عند كل معنى من معانيها مراعيًا

في تقديره وإصدار أحكامه للشاعر أو عليه كل ما أحاط به من
ظروف وملابسات خاصة وعامة عندما نظم قصيدته ؛ ومقدراً
المناسبة التي قالها فيها والنرض الذي يرى إليه ، ثم يخلص من
ذلك إلى الجمع بين التشابه ، والتأليف بين المتقارب ، ثم يستنبط
جمه ما هو بصدد الوصول إليه من حقائق عامة ونظريات أدبية
هامة ، ويسوق من شعر الشاعر الشواهد التي تؤيد دعواه ، ومن -

أقوال النقاد السابقين أدلة تدعم قضاياه .
والجارم في ثقافته وسط بين المدرسة القديمة التي يمثلها
القداي من أدباء دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي وهما مشتقتان
من مصدر الأزهر : وهذه المدرسة القديمة ترتكز في دراستها
على القرآن وحديث الرسول والآثار القديمة من دواوين الشعراء
في عصر الرابية الزاهرة ، وكتب الناقدن من أضراب عبد القاهر
وابن رشيق والآمدى والمسكرى وغير هؤلاء ؛ والمدرسة
الحديثة التي يمثلها الأعلام ممن تعلموا تأليا مدنيا وجنحوا في
دراستهم إلى الآداب الغربية ينهلون من حياضها بمن هم على شاكاة
لطفي السيد وقاسم أمين وفتحى زغلول ومن سار سيرتهم واهتدى -
بهديهم .

فجاء الجارم في شعره حلقة الاتصال بين المدرستين ، ينظم
في الحوادث الجلى والناسبات التاريخية فتسمع له شعرا فيه الطابع
البدوي والموسيقى العربية ، والألفاظ المتقاة فتخاله رجما قد بما
وتحسبه ما يقول الامارا ، ثم لا ثابت أن تسمعه ثانية فتسمع
شاعرا متصرفا في شعره ساميا في خياله فتلمح روح العصر قد
بدا ناطقا في قصائده مرثيا من أبياته .

فلم يجبني الجنى قالتفت بمد لحظة إليه لأكله فلم أجده ؛ واستدرت
إلى المنظر الذي تأملته ذلك الوقت الطويل فرأيت بدلا من التيار
الموار وأعمدة الجسر والجزر السميدة وادى بقدرات (١) المريض
تمر فيه الثيران وقطمان الغنم والجمال ترعى الكلا في دعة
واطمئنان .

موزعون على الجزائر التي تعمرها الممرات المتنوعة موافقة
حسب ما يشاؤون وما يلد لهم لإتمام هتاهم فيها . وكل
جزيرة فردوس أعد للأبرار الأظمار من بني البشر . فهلا
نتحقق هذه المساكن ياميرزا النضال للافوز بها أو هل تبدو الحياة
مفعمة بالتماسة وهي تعطى هذه الفرص لتيل مكافأة كمذه ؟ وهل
الموت مخيف وهو الذي يملك إلى هذه الحياة الطليقة التي لا يمكر
صفوها كدر ؟ فلا تحسب أن الإنسان خلق سدى ، وفي انتظاره
تلك الحياة السرمدية . وحملت في تلك الجزر وقابى مغمم بسادة
لا يبعدها حد . وأخيرا رجوته أن يكشف لي من السر الذي
يكن خلف النجوم التي تحجب الطرف الآخر من سفرة الماس .

(١) ليل للسكانبب بمدة بغداد ، ولكنها غير واقعة على جبال كما
توهها .

علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدرية مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن البرز ، وبقدرة نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان) أو على نحو ما يقول بكر بن النطاح (الشمر مثل عين الماء إذا تركها اندفنت وإن اسمتها هنت) وكما يقول أحمد حسن الزيات في كتابه (دفاع عن البلاغة) (آلة البلاغة الطبع الموهوب والعلم المكتسب) .

فالجارم الذى يجود خياله بصورة للحرب العظيمى نتج بالدماء وتطايير فيها الأشلاء قتشيع منها العقبان فى البر والحيتان فى البحر ، وتعبير عنها هذه الأبيات : -

طاحت بأهل الترب نار الوغى وهبت الريح بهم زعزعا
طاف عليهم بالردى طائف فاخترم الأنفى لاسى
وصاح فيهم لهنوى صائح فصمت الأسماع مذا سمعا
قد فصت الأرض بأضلائهم وأصبح البحر بهم مترعا
وآن للمقبان أن تكفى وآن للحيتان أن تشبعا
- هو نفسه الجارم الذى يلين ويرق فيسيل ظرفا وحلاوة فى لهوه - لحسن تصرفه - فيقول : -

ياسارقات الصبح طال ليلي فديتكن بعض هذا الدل
هل جازى دين الغرام ذل من لى بأن أتى الصباح من لى ؟
باللح لو باللس أو بالتم

فيكن ذات حسب ودين مشرقة الطلعة والجبين
كلها إحدى الطباء المين من عاذرى فيهن من معينى
عيل بها صبرى وطاش حلمى

حديثها سلافة النديم وخلقتها تواضع اليتيم
فديتها من ملك كريم تعرف فيها نضرة النديم
أتى وأسقى من نطاف النيم

وإن المعانى التى تتضمنها هذه الأساليب (سارقات الصبح ، دين الغرام ، طاش حلمى) من المعانى البديعة المبتكرة التى تدل على حسن تصرف الشاعر . وإن تشبيه الحديث بسلافة النديم واخلاق بتواضع اليتيم ، من التشبيهات الجميلة الرائجة . وهو نفسه الجارم الذى يبكي أمير الشعراء (شوق) ويصور

فهو مثلا فى إحدى مدائحه الملكية تبدو عليه آثار المدرسة القديمة وتأثره بجمع التقدم من الشعراء عند ما يقول : -
أقبس الروح منى شعاع الراح واثم الحسن فى جبين الصباح
وابت اللحن من سمانك يا شمر وناقس به ذوات الجناح
وإتهب الحسن من خدود المذارى وامرق السحر من عيون الملاح
إلى أن يقول : -

إبه يا شمر أنت سلهامى فى الدنيا إذا ضاق بى فسحج العراج
وفى مثل هذه المناسبة وفى قصيدة أخرى بطل عليك الجارم من مدرسته الحديثة فتبدو على شعره سمات الثقافة الغربية ودراسته الحديثة فيقول فى الفاروق : -

هو الأمل البسام رف جناحه فطارت به من كل قلب بلايله
هو الكوكب الملاح يسطع بالنى وتنطق بالغيث الميمى مخايله
ترى بسمه الآمال فى بساتنه وتلمس سر الذبل حين تقايله
يفديه غصن الروح ريان لأضرا إذا اهتز فى كف النسام مائله
فإن الأمل البسام ، وطيران البلايل من القلوب ، وسطوع الكواكب بالنى ، وبسمة الآمال وإهزاز النمن المائل فى كف النسام ، وجريان (النسام) على هذا الوزن فى الجمع كلها من التسميات المصرية ، ووليدة اصطلاحات المدرسة الحديثة فى اتجاهات دراستها .

والجارم فى كل شعره أو على الأقل فى الغالب الكثير منه لا تكاد تفرقه هذه الصفة التى يمثل فيها مدرسته الأدب القديمة والحديثة ويصل بينهما ما يكاد ينقطع .

وهناك صفة أخرى يتميز بها الجارم فى شعره ، تلك هى (قدرته على التصرف) فى نظمه فى مختلف الأغراض ، ولله اكتسب هذه الميزة من كثرة ما قرأ وطول ما توفى على الدراسة والبحث مع حسن استمداد وصفاء طبع وإدامة النظر فى أشتار من سبقوه ، وإن تكفى مطلقا الخلق شاعر حسن التصرف كثرة القراءة وحدها ؛ إذا أكثر من المكتبرين القراءة ، ولكن ما أقل من نجده من بينهم قد توافرت له أداة حسن التصرف فى القول ؛ بل لا بد أن يبرز كثرة القراءة تهيو من خيال خصيب وذوق سليم وطبع صاف على نحو ما قال الجرجاني (إن الشعر لم ين

نجيمة مصر والشعر فيه تصويراً تسمو فيه مقدرة الجارم طي
التصوير الشعري فيقول :-

مات يا طير صادق تسجد الطير إذا رجع الصدى تحنانه
نبرات نحاها صوت دارو د بلفظ نحاها نبيانه
مات شوقى وكان أنفذ سهم سائب الرى من سهام الكنانه
أبك للشمس في السماء أخاها وإبك للدهر قلبه ولسانه
واسك للنجوم كم ساحرته مائتات بوحيا آذانه
وابك للروض واسفا ينجبل الروض إذا هز باليراع بنانه
وابك للخيال سنوا نقيبا إنه كان في الورى ترجمانه
ملا الشرق موت من ملا الشر ق حياة وقوة وزكانه

ثم ينتقل بحسن تصرفه - من تصوير هول المصيبة بوفاة
شوق وخسارة مصر والشرق العربي فيه ، إلى تصوير قومية
شوق وحبه لمصر وتملقه بكل ما هو مصرى من نيل وخضرة
ونخائل ، وأنه يشق من أجل مصر النيل والجزيرة وجسر اسماعيل
وعين شمس و... و... فيقول :-

كان سبا بمصر كم هام شوقا بريها وبها أحزانه
دفن اللهو والعبا في تراها وطوى من شبابه عنفوانه
هى بستانه فترد فيه وحبها كل قلبه بستانه
يحرس الفن في ظلال نواحيه ويرى عن دوحه غربانه
يمشق النيل والنخائل تم تر بشطيه خضرة ولدانه
يمشق النيل والجزيرة تنرب ه وقد اف حولها أردانه
يمشق الجسر والفتان تهفو حوله كالحائم الظمآنه
ويحب السواد من عين شمس مالنا من روايه أجفانه
ثم يطلع علينا الجارم بمد ذلك بصورة جديدة - دون أن

يعدم سعة الحيلة وحسن التصرف - يصور فيها شوق إماما لمن
ينشدون الخلود ومثلا أعلى لمن يتوقون إلى حسن الذكرى وطيب
الأعدوة يحتذ به كل من تصبو نفسه إلى ذلك فيقول :

هكذا كل من يريد خلودا يجمل السكون كله ميدانه
هكذا فليسر إلى المجد من شا . ويرفع بذكره أوطانه
ثم يلج بأخلاق شوق في آيات ستة يجمع فيها مكارم الأخلاق
التي يتسابق أعزاء الرجال في تحصيلها لتزداد بها عزتهم حصانة

وقوة فيقول :-

خاق كالندى وقد نطق الزه ر غلى رثى الرياض وزانه
وصبا يملأ الزمان ابتساما وحجا يملأ الزمان رزانه
وسماح يلقى الصريخ بوجه تحسد الشمس في الضحى لعانه
شم في تواضع وحياء فى وقار وفطنة فى لقانه
وحدث حلولة روعة الشعر فلو كان ذا قواف لكانه
مقيز بالله مامسه الضعف ولا طائف من الشك شأنه

ثم ينتقل بمد ذلك - وعماده حسن تصرفه - إلى مناجاة
شوقى فى حنان شعري وأسف على فراقه ودعاء له من قلبه مع
اعتذار واعتبار قائلا :-

أيها الراحل الكريم لقد كنت سواد العيون أو انسانه
ثم قليلا فى جنة الخلد وانعم برضا الله واغتم غفرانه
كيف يوفى الشعر الذى ملك الشه ر وألقى لقبه أوزانه
ورثاء البيان جهد مقل للذى خلد الزمان بيانه

نهج من المناهج القويمة السليمة رسمه الجارم بطبعه الشعري
الأصيل وسار عليه فكان موقفا فيما نظم من قصيد . أليس هو
النهج الذى رسمه عبد العزيز الجرجاق للشاعر وأوصاه بالتزامه
ليسلم من الزلزال فقال (ولا أمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى
واحدا ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك أن تقسم
الألفاظ على رتب المأوى ، فلا يكون فذلك كافتخارك ، ولا مديحك
كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبكاك ولا هزلتك بمنزلة جدك . . .
بل ترتب كلامك مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطف إذا تغزلت ، وتغض
إذا افتخرت ، وتتصرف المديح تصرف واقعه ، فإن المدح بالشجاعة
والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ؛ ووصف الحرب والسلاح
ليس كوصف المجلس والدماء ؛ فلكل واحد من الأمرين نهج هو
أملك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه) .

عبد الجواد سليمان

المدرس بمنازل سوهاج